الفصل الثانى

نشأة الأصمعى

نشأة الأصمعى بالبصرة (الفترة الأولى) – البصرة ومسجدها – المربد – شيوخ الأصمعى – رحلات الأصمعى إلى البادية – علاقته بعلماء الحجاز – كيف تأثر بشيوخه – حلقته بالبصرة – تلامذته .

أغفل أكثر من كتب عن الأصمعى النص على سنة ولادته ، فلم أجد ذلك إلاّ فى مصدرين : أحدهما وهو ابن قتيبة فى كتاب المعارف ، والآخر متأخر وهو ابن خلكان فى كتاب وفيات الأعيان :

ذكر ابن قتيبة أن الأصمعى ولد فى سنة ثلاث وعشرين ومائة من الهجرة فى مدينة البصرة[1] ، ويتفق صاحب الوفيات مع ابن قتيبة فى هذا التحديد تقريبا فقال : وكانت ولادة الأصمعى فى سنة اثنتين وعشرين ، وقيل ثلاث وعشرين ومائة[2] .

ومع ذلك فابن قتيبة الذى يُعَيِّن مولد الأصمعى هذا التعيين يقارب فى ذكر جملة عمره فيقول فى تكملة الخبر السابق : (إن الأصمعى عَمَّر نيفا وتسعين سنة) والخطيب البغدادى يقول فى تاريخ بغداد . إن الأصمعى بلغ ثمانياً وثمانين سنة ، ومع هذا فالأصمعى نفسه لا يدرى متى ولد وقد مرَّ بك حديث أبى حاتم السجستانى وقد سأله : كم سنة مرت من عمرك ، فقال : لا أدرى !

ونشأة الأصمعى المبكرة غامضة أيضاً ، ولا نحب فى بحث علمى كهذا أن نتمثل طفولة الأصمعى معتمدين على أخيلتنا وتصورنا ، ولم يرق لنا ما ذهب إليه الدكتور عبد الجبار الجومرد فى هذا[3] ، فآثرنا ترك هذه الفترة لمن يستطيع أن يُجلّيها بعدنا ، وحسبنا أن نراه فى

---

(١) المعارف لابن قتيبة ٢٣٦ .

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٣٤٧ .

(٣) الأصمعى . تاريخه وآثاره ٥٤ .

مسجد البصرة ينتقل من حلقة إلى حلقة ، ويلوذ بأبى عمرو بن العلاء فى المسجد تارة ، وفى بيته تارة أخرى .

وأحسب أن أسرة الأصمعى كانت على شىء من اليسار بالقدر الذى كفل له التفرغ للعلم والتحصيل إلا من بعض الأعمال التى لم يجد فى أدائها مضيعة لوقت أو مصرفاً عن تحصيل كحراسة الإبل . وقد أشار الأبشيهى إلى ذلك فى كتاب المستطرف فقال عن الأصمعى : (ضلّت لى إبل فخرجت فى طلبها ، وكان البرد شديداً فالتجأت إلى حى من أحياء العرب .....)[٤] .

لم تلهه هذه الأعمال عن ألواحه وما هو بسبيله من استنشاد الأعراب ، واستيعابه لأقوالهم : يقول فى بقية الخبر السابق (..... فإذا بجماعة يصلّون ، وبقربهم شيخ ملتف بكساء رقيق ، وهو يرتعد من البرد ، فجلست بجانبه ، وقلت له أنشدنا ، فقال :

أيا رب ، إنّ البردَ أصبح كالحاً وأنت بحالى يـا إلهى أعـلـمُ
فإن كنت يوماً فى جهنم مُدخلى فنى مثل هذا اليوم طابت جهنمُ

ويأخذ الأصمعى فى معاتبته أن ترك الصلاة فيجيبه الشيخ :

أيطمعُ ربى أن أصلّىَ عارياً ويكسوَ غيرى كسوة البرد والحرِّ
فوالله لا صليت ما عشت عارياً عشاء ولا وقت المغيب ولا الوترِ
ولا الصبح إلاّ يوم شمس دفيئة وإن غيمت فالويل للظهر والعصرِ

فلا يترك الرجل حتى يحفظ عنه قوله وإنشاده .

وكان اصطناع أسرة الأصمعى لرعى الإبل من أسباب صلته بالبادية على هذه الصورة ، فلقى الأعراب ، واستنشدهم الشعر ، وتنبه إحساسه له ، وبدأت هوايته فى سماع الأشعار وتدوينها وحفظها ، فلم يبلغ الحُلُم حتى حفظ أكثر من عشرة آلاف أرجوزة[٥] ظل هذا التحصيل مذهبه وديدنه ، يحمل ألواحه إذا فرغ من المسجد يدور بها فى أزقة البصرة ، ليجد أعرابياً يسأله ، أو يناقشه أو يستنشده حتى عرفه أهل البصرة على هذه الصفة ، وهو يحكى هذا فيقول :

كنت أغشى بيوت الأعراب أكتب كثيراً ، حتى ألِفُونى وعرفوا مرادى ، فأنا يوماً مارٌّ

---

(٤) المستطرف ٢ : ١٢٣ .

(٥) انظر : أخبار النحويين البصريين ٥٢ وتاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ ، ونزهة الألبا ١٥٠ وإنباه الرواة ٢ : ١٩٧ .

بعذارى البصرة قالت لى امرأة : يا أبا سعيد ، ائت ذلك الشيخ ، فإن عنده حديثاً حسناً فاكتبه إن شئت ، فأتيت شيخاً هِمًّا ، فسلمت عليه ، فرد علىّ السلام ، وقال : من أنت ؟ قلت : أنا عبد الملك بن قريب ، قال : ذو يتتبع الأعراب فيكتب ألفاظهم ؟[٦] .

ويقول له أعرابى وقد رآه يكتب كلّ ما يصل إلى سمعه : ما أنت إلاّ الحفظة تكتب لفظ اللفظة .

ويقول عن نفسه : رآنى أعرابىّ وأنا أكتب كل ما يقول ، فقال : ما تدع شيئاً إلا نَمَصْتَه[٧] .

وله فى هذا حكايات تروى على سبيل الترويح ، وتعبرّ فى الوقت ذاته عن هذا المسلك : رآه شيخ وهو يكتب عن صبية يتراجزون ، فقال له : أتكتب عن هؤلاء الأقزام الأدناع ؟ ! ويلقى كناساً يتغنى بقول الشاعر :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فيحاوره ويشاكسه – ويهزأ من اسم غلام من بنى أسد ، ويدخل معه فى حوار طويل ، وهو فى كل هذا يتخذ من مادة اللغة والأخبار والأشعار أساساً لتلك المحاورات .

كان هذا هو الأصمعى الناشئ بين المسجد وبيوت الأعراب فى أزقة البصرة ، ونوجز فيما يلى تعريفاً بهذه البيئة التى حمل علمه عنها .

البصرة ومسجدها :

أُنشئت البصرة فى عهد عمر بن الخطاب فى سنة أربع عشرة من الهجرة بعد أن استشير فى بنائها . فأذن بذلك على ألاّ يحول بينه وبين جنوده بحر فخرج عُتبة بن غزوان من الحيرة فى ثمانمائة رجل حتى نزل فى موضع البصرة – وهى قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب – فأقام بها بيوتاً ومسجداً من القصب ، فكانوا إذا غَزَوْا نزعوا ذلك القصب وحزموه ، فإذا فرغوا من غزوهم أعادوه ، ثم أخذت يد العمران تتعهدها بالبناء والتحسين والإكثار من زراعة النخل ، وأخذت تعج بالقبائل العربية التى وفدت إليها وبأبناء الفرس والهنود وغيرهم حيث كانت مرفأ العراق ومقصد السفن التواجر ، والناس على شتات أجناسهم يجدون فيها متسعاً من العيش وطيب الإقامة : وصفها فتى من أهل المدينة لأصحابه فقال : (خير بلاد الله للجائع

(٦) المزهر ٢ : ٣٠٧ ط الحلبى .

(٧) أخبار النحويين البصريين ٥٢ .

والغريب والمفلس . .)[٨].

ويعدد ميزاتها خالد بن صفوان لعبد الملك بن مروان فيقول : (نحن أكثر الناس عاجاً وساجاً وخزًّا وديباجاً ، وبرذوناً هملاجاً ، وخريدةً مغناجاً بيوتُنا الذهب ، ونهرنا العجب . أوله الرطب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب : فأما الرُّطب عندنا فمن النخل فى مباركه كالزيتون عندكم فى منابته : هذا على أفنانه ، كذاك على أغصانه ، هذا فى زمانه كذاك فى إبانه ، من الراسخات فى الوحل ، المطعمات فى المحل .... ..

ويقول الأصمعى : سمعت الرشيد يقول : نظرنا فإذا كلُّ ذهبٍ وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة ![٩] .

كان أول ما يهتم به المسلمون عندما يستقر بهم المكان أن يولوا عنايتهم إقامة المسجد على مقربة من نزل الأمير : يؤمّهم فى صلاتهم ، ويلقى إليهم بتعاليمه ، وكان سكان البصرة قد دخلوا منذ الفتح فى دين الله ، ووجدوا أنفسهم أمام أصول عامة جاء بها القرآن والسنة ، ووجدوا أنفسهم فى حاجة إلى تفهمها ودراستها ، فعنوا أول الأمر بقراءة القرآن وتحصيل الحديث ، وهم فى سبيل هذا لابد لهم من معرفة لغة العرب ، وهكذا أخذت كلُّ خطوة تسلمهم إلى أخرى ، وكان المسجد هو المكان الذى تتركز فيه كل الوجوه المختلفة للنشاط الفكرى والاجتماعى أيضاً ، ولم يقتصر أمره على المسلمين ، وإنما شمل الحركة الفكرية أيًّا كان مصدرها : يقول الدكتور طه حسين فى المقال الذى قدّم به كتاب نقد النثر.

(..... ولم تكن الكوفة والبصرة يومئذ مجرد مساجد يتعبد فيها المسلمون ويفصل فى أقضيتهم ، بل كانت فوق ذلك مدارس يغشاها العلماء لتدريس اللغة والنحو والحديث والفقه ، والإخباريون ليقصّوا على سامعيهم أخبارَ المغازى والفتوح والفتن ، وزعماء الأحزاب السياسية والفرق الدينية للجدل والمناظرة ، وكان يجلس إلى هؤلاء جميعاً أفناءٌ من الناس ما بين مسلم ويهودى ونصرانى ومجوسى ، وما بين عربى عاطل مزهو طموح تستهويه فصاحة اللسان ، وأعجمى نشيط ، ولكنه متبرم بحاله غير راض عنها ....)

كانت البصرة بمسجدها الجامع أسبق مدن العراق ، وأعلاها شأناً فى مضمار العلوم واللغة والآداب ، وكان المسجد أول جامعة إسلامية أخرجت من أساطين العلم أبا عمرو بن العلاء ،

---

(٨) معجم البلدان ٢ : ٢٠٢ .

(٩) المصدر السابق ٢ : ٢٠٥ – ٢٠٧ .

ويونس بن حبيب ، وعيسى بن عمر الثقفى ، والخليل بن أحمد ، وحماد بن سلمة ، وشعبة ابن الحجاج ، وخلفاً الأحمر ، وأبا زيد سعيد بن أوس الأنصارى ، وأبا سعيد عبد الملك ابن قريب الأصمعى ، وأبا عبيدة معمر بن المثنى ، وسيبويه ، وأبا حاتم السجستانى ، وأبا الفضل الرياشى ، وأبا عثمان المازنى ، والمبرد .. إلى غير هؤلاء .

وظل نشاط البصرة العلمى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى وإن كان الاضمحلال قد أخذ يدب إليها منذ دهمتها ثورة الزنج فى سنة سبع وخمسين ومائتين ، وظهور بغداد كعاصمة للدولة العباسية واستقدامها لعلماء الكوفة بادئ الأمر لعلاقتهم الطيبة برجال الدولة ، ثم رجال البصرة الذين ذهبوا كمدعوين للإفادة منهم .

المربد :

إذا تحدثنا عن البيئات العلمية التى كان لها دور فى تكوين الأصمعى – تعيَّنَ أن نشير إلى المربد الذى كان يمد البصرة بالمدد الواسع من الشعر واللغة : كان المربد سوقاً من أسواق البصرة ، على بعد ثلاثة أميال من طرفها من جهة الصحراء يجتمع فيه أهل البادية الذين يجيئون من باديتهم بما يريدون المتاجرة فيه ، ويخرج إليهم أهل البصرة ليشتروا ، والبدوى كما نعلم مفتون بالشعر وفنون القول ، تجده وقد تهيأت له المناسبة فى هذا الاجتماع الكبير قد تَسَنَّم ناقته ، أو وقف على بارز من الأرض تهدر أشداقه بما أَعَدَّ من كلام وسط جمع من أهل البصرة والأعراب الوافدين إلى السوق ، وكان بهذا أنسب مكان لإذاعة الإنتاج الأدبى : اختاره جرير ، والفرزدق ، والراعى فى العصر الاموى ميداناً للمهاجاة ، فكان لكل حلقته يجتمع من حوله أنصاره والراغبون فى شعره ، ثم تتفرق هذه الجموع بعد أن تختلط وتتناقش وتختلف لتُطَيِّر أشهر الأهاجى التى عرفها التاريخ الأدبى .

كان هذا النشاط فى العصر الأموى وقد تأججت نيران العصبية ، أما فى العصر العباسى – فكان للمربد رسالة أخرى : كان أهل البصرة يخرجون إلى الأعراب يبادلونهم أسباب معاشهم ، وفيهم فئة من الطلاب يلتقطون الكلم الصحيح من أفواههم استكمالاً أو تطبيقاً لما انتهوا إليه فى دراساتهم للنحو واللغة والشعر فى الحضر ، وكان الأصمعى يذهب إلى المربد يستمع إلى الأعراب ، ويملأ ألواحه من غريب كلامهم .

ولما أحسَّ هؤلاء الأعرابُ آثارهَم فى أهل البصرة وطُلابها – وفدوا إلى المربد بقصد

التعليم . وكان من أشهرهم أبو خَيْرة ، وأبو لحيانة ، وأبو العذافر ، وأبو مَهْدية ، وأبو العَرَّاف ، والمُتَجع ، وأبو ضمضم ، وأبو الدُّقيش .. إلى غير هؤلاء .

جلس الأعراب وسط طلابهم فترة من الوقت ، ثم جعلوا مساكنهم بين المربد والبصرة ، ثم أخذوا طريقهم إلى البصرة نفسها ، وطال مكثهم فى الحضر ، ففسدت سليقتهم ، وما لبث البصريون أن تشككوا فيهم ! لأنهم وجدوا ألسنتهم طاعت بكلام الحضريين فَبَهْرَجُوهم وَزَيَّفُوهم !

لمح الجاحظ هذه الأمارات على يزيد بن كثوة (فى بعض المصادر زيد بن كثوة) فقال : كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد ، على أنه قد كان وضع منزله فى آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة (أى جعل منزله بين المربد والبصرة) ، وكان لا ينفك من رواة ومذاكرين[١٠] ، وبالرغم من تَعَلُّقه هذا بالبادية فقد كان مجرد قربه من الحضر يؤثر تأثيراً سيئاً على لسانه .

وزيفوا أبا خيرة أيضاً : سأله أبو عمرو بن العلاء عن قولهم – استأصل الله عرقاتهم) – فنصب أبو خيرة التاء من عرقاتهم ، فقال له أبو عمرو ، هيهات يا أبا خيرة لان جلدك ! ذلك أن أبا عمرو استضعف النصب لأنه كان سمعها منه بالجر[١١] .

ويبدو أن هذا الذى ظهر على ألسنة الأعراب ليس كله من فعل البيئة ، بل كان لبعضهم رغبة فى التزيد والخلق إرضاءً للسائلين أو مباهاة بكثرة المعرفة .

ولم يجد طلاب اللغة بعد أن ساء رأيهم فى الأعراب بُدًّا من شَدّ الرحال إلى البادية ، فطوفوا فى الجزيرة يسمعون اللغة وغريبها من أهلها الخلص ، وفاخر البصريون الكوفيين بهذا العمل ، فكانوا يغمزونهم بقولهم : (نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع . وأنتم تأخذونها عن أكلة الشوارىز والكوامخ)[١٢] .

وكان أبو زيد يعزو فساد علم الكسائى إلى أنه أخذ عن أعراب فسدت سليقتهم ، فقال : قدم علينا الكسائى البصرة ، فلقى عيسى والخليل وغيرهما ، وأخذ منهم نحواً كثيراً ، ثم صار إلى بغداد ، فلقى أعراب الحُطَمِيّة ، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان

---

(١٠) البيان والتبيين ١ : ١٧٤ ط السندوبى .

(١١) نزهة الألبا ٣٢ ، ٣٣ .

(١٢) معجم البلدان ٢ : ٢ : ٢٠٥ .

أخذه بالبصرة كله[١٣] ! واضطر الكسائى بعد ذلك أن يسلك مسلك البصريين ، وأن يرحل إلى البادية . ولصاحبنا الأصمعى رحلات إلى البادية سنتحدث عنها بعد قليل .

شيوخ الأصمعى :

ذكرت الأخبارُ عدداً كبيراً من شيوخ الأصمعى ، جلس إلى بعضهم وأطال ، وجلس إلى آخرين فترات محدودة ، وجمع بين علوم هؤلاء وهؤلاء ، منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفى ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن أحمد ، وخلف الأحمر ، وسمع عبد الله بن عون ، وشعبة بن الحجاج ، وحماد بن ميسرة المعروف بالراوية ، وحماد بن سلمة ، وسفيان بن عيينة ، ويعقوب بن محمد بن طحلاء ، ومسعر بن كدام ، وسليمان بن المغيرة ، وقرة بن خالد وغيرهم .

بعضُ هؤلاء علماء باللغة أو بالشعر أو بالنحو أو بالقراءات ، أو بالحديث ، أو يجمع بين نوعين أو أكثر من هذه العلوم ، ونحن نعرف بأخصهم الذين نعتقد أن الأصمعى تأثر بهم :

كان أبو عمرو بن العلاء صاحب قراءة ، وأعلم الناس فى عهده بالأدب والعربية والشعر ، أخذ بمكة والمدينة والكوفة والبصرة عن شيوخ تقدَّموه ، منهم : أنس بن مالك ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة . تعلَّق أبو عمرو بالقديم من الأشعار ، وكان يتوقف عن رواية شعر المُحْدثين وإن أُعجب بهم كان إذا سمع شعر جرير والفرزدق وأمثالهم استقبله بمزاج من الإعجاب والحَرَج ويقول : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته[١٤] فكان إذن يعدهم مَولدين بالإضافة إلى الشعراء القدامى حين يرى أن الشعر ختم بذى الرمة ، والرجز برؤبة بن العجاج[١٥] ورؤبة لم يكن من المخضرمين ولا من الجاهليين ، وعلى هذا لا يستقيم الخبر الذى أورده ابن رشيق من أن أبا عمرو لا يَعِدّ الشعرَ إلا ما كان للمتقدمين إلا إذا خرجنا من هذا المفهوم إلى مسألة الاحتجاج بالشعر وأنه كان فى هذا فقط يفضّل أشعار القدماء من الجاهليين والمخضرمين : يدلك على ذلك قول الأصمعى : (جلست إلى أبى عمرو

---

(١٣) معجم الأدباء ١٣ : ١٨٢ .

(١٤) العمدة ١ : ٥٧ ط هندية سنة ١٩٢٥ ، ص ٧٣ ط محمد محيى الدين عبد الحميد .

(١٥) وفيات الأعيان ٣ : ٨٨ .

ابن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامى)[١٦] .

ونتيجة لهذا المسلك لم يتحمس للقياس الذى نادى به ابن أبى إسحق ، وإنما ظل يعتمد على السماع وحده ، شديد التسليم لما يسمعه من العرب[١٧] ، وينتقى منه ما غلب استعماله : سأله سائل : خبرنى عما وضعت مما سميت عربية يدخل فيه كلام العرب كله ؟ قال : لا . قال : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهو حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمى ما خالفنى لغات[١٨] ، ثم بلغ به التحرج أن أحرق كتبه فى أخريات أيامه مخافة أن يكون فيها غير الصحيح .

وكان أبو عمرو يكره الكلام فى القَدر تأثماً وتحرجاً لنهى الرسول عنه : سأله معمر عن قوله تعالى : (وماكنا له مقرنين) فلم يجب ، فلما ألَحَّ عليه وقال : إنى سمعت قتادة يقول : مطيقين – سكت ، فلما عاود إلحاحه قال أبو عمرو : حسبك قتادةُ ! فلولا كلامه فى القدر وقد قال ﷺ – (إذا ذكر القدر فأمسكوا)– لما عدلت به أحدًا من أهل دهره[١٩] .

كان عالمًا جليلا ، يأتيه الطالبون ينالون فضل علمه ، تضيق بهم حلقته بعد أن وثق به علماء عصره ، وقال فيه يونس بن حبيب لو كان أحدٌ ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شىء واحد لكان ينبغى أن يؤخذ بقول أبى عمرو كله ![٢٠] .

إلى هذا الشيخ جلس الأصمعى ولازمه ، وأُعجب به ، وأحبه حتى ماكاد يفارق حلقته وتأثر الأصمعى بكل مذاهب أبى عمرو ، وبقيت الانطباعات التى ورثها عنه ظاهرة فى سلوكه واتجاهاته على النحو الذى سنذكره بعد .

وكان من أساتذته أبو عمرو عيسى بن عمر الثقفى صاحب أبى عمرو بن العلاء ، وكان صاحبَ قراءةٍ أيضاً ، وبالرغم من انصرافه إلى القراءة ووجوهها – كان له بصرٌ بالشعر ونقده ، وأستشهد بآرائه محمد بن سلام الجمحى فى كتابه (طبقات فحول الشعراء) فى مواضع كثيرة .

وعيسى بن عمر من أوائل الذين ألَّفوا فى النحو ، ويزعم سيبويه فى محادثة له مع الخليل

---

(١٦) البيان والتبيين ١ : ٣٠٨ .

(١٧) المصدر السابق ١ : ٣٠٩ ومعجم الأدباء ١١ : ١٦٠ .

(١٨) وفيات الأعيان ٣ : ١٣٨ .

(١٩) وفيات الأعيان ٣ : ٢٤٨ .

(٢٠) طبقات الزبيدى ١١٧ ومعجم الأدباء ١١ : ١٦٠ .

أن عيسى صنّف نيفاً وسبعين مصنفاً فى النحو ذهبت ولم يبق منها سوى تصنيفين : كتاب الجامع ، وكتاب الإكمال[٢١] .

والرأى عندى أن هذا العدد من التصانيف لا ينصرف مفهومه إلى الكتب الكبيرة ، ولكنها – إن صَحَّ الخبر – كتيبات أو رسائل . كان ميدان عيسى إذن قراءة القرآن ، ودَرْس النحو واللغة ورواية الشعر ، فأخذ عنه الأصمعى علم القراءات بصفة خاصة فى جملة من الآخذين عليه[٢٢] .

وجلس الأصمعى إلى يونس بن حبيب وهو من علماء اللغة والنحو والغريب ، واسع الرواية ، ومرجع الأدباء والنحويين فى المشكلات ، وكان له فى العربية مذاهب ينفرد بها[٢٣] ، وكان يونس عالماً بالشعر نافذ البصيرة فى تمييز جيده من رديئه ، عارفاً بطبقات الشعراء حافظاً لأشعارهم ، يرجع إليه فى ذلك كله .

ومن شيوخ الأصمعى الخليل بن أحمد ، سمع منه النحو واللغة ، وقيل : إنه حاول فهم العروض منه ، فاستعصى عليه : روى بسنده عن الخليل قال : (كان يتردد إلىَّ شخصٌ يتعلم العروض وهو بعيد الفهم ، فأقام مدة ولم يعلق على خاطره شىءٌ منه فقلت له يوما : قَطِّعْ هذا البيت :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فشرع معى فى تقطيعه على قدر معرفته ، ثم نهض ولم يعد ، فعجبت من فطنته لما قصدته فى البيت مع بعد فهمه ! حكى ذلك الخليل دون أن يصرح باسم الأصمعى ، ولكن السيرافى نسبها إلى الأصمعى ، كما ذكر هذه الواقعة بتفاصيلها أبو الفتح عثمان بن جنى فى كتاب الخصائص وعلّق عليها بأن الأصمعى ليس ممن ينشط للقياس ولا لحكاية التعليل لتوفره على ما يروى ويحفظ[٢٤] .

وجلس الأصمعى إلى طراز آخر من الرجال هم رواة الشعر بخاصة . وكان أمثلهم فى البصرة خلف الأحمر ، وقد بلغ من حذقه واقتداره على الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء حتى

---

(٢١) معجم الأدباء ١٦ : ١٤٦ ، وإنباه الرواة ٢ : ٣٤٧ .

(٢٢) وفيات الأعيان ٣ : ١٥٤ .

(٢٣) أخبار النحويين البصريين ٢٧ .

(٢٤) الخصائص ١ : ٣٦٢ ط دار الكتب .

يُشبَّه بذلك على جلّة الرّواة ولا يفرّقوا بينه وبين الشعر القديم[٢٥] من ذلك قصيدته التى نحلها ابن أخت تأبط شرًّا والتى أولها :

إنّ بالشعب الذى دون سلْع لقتيلاً دمه ما يُطل

فإنها جازت على جميع الرواة ، فما فطن إليها إلا بعد دهر طويل ، وبعد أن تأملوا قوله :

خبر ما نابنا مصمئل جَلَّ حتى دقَّ فيه الأجلُّ

قال بعضهم : الشطر الأخير من كلام المولدين ، فحينئذ أقر بها خلف .

ومع هذا الذى عرف عن خلف[٢٦] كان أبو زيد يجله ويقدره ، ويشهد له ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يأتى إلى مجلسه ، فيجلس بين يديه ويقول : أُمِرْنا أن نتواضع لمن نتعلم منه[٢٧]

ويقول ابن سلام ، كنّا إذا سمعنا الشعر من أبى محرز لا نبالى أن نسمعه من قائله[٢٨] .

جلس الأصمعى إلى خلف فترة طويلة أخذ عنه الشعر والنظر فيه وفى معانيه ، وكان الأصمعى قد تَزَوَّد من النحو فى حلقات الشيوخ ، ولم يلبث أن فاق أستاذه ، وصار أبعدَ نظراً فى الشعر وأوسع فيه رواية .

وهناك طراز آخر من العلماء كانوا محدّثين فى الأصل ، ولكنهم شاركوا فى اللغة والشعر والأدب ، جلس إليهم الأصمعى وأخذ عنهم ، وبادلهم المعرفة ، منهم : حماد بن سلمة البصرى ، وهو إلى جانب شهرته فى الحديث إمام فى العربية ، قال عنه يونس : (كان حمّاد رأس حلقتنا ، ومنه تعلّمْتُ العربية)[٢٩] .

وكان سبيل الأصمعى إلى حماد بن سلمة – شعبة بن الحجاج ، فالتقى الثلاثة على موعد فى مجلس حماد ، فقال له شعبة : يا أبا سلمة ، هذا الفتى الذى ذكرته لك ، وأشار إلى الأصمعى فحياه وسأله : كيف تنشد هذا البيت :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البُنى وإن عاهدوا أوفوا ، وإن عقدوا شدّوا

فأنشد الأصمعى البيت ، وكسر ياء البنى – فرده حماد قائلاً : يا بنى ، أولئك قوم إن بنوا

---

(٢٥) إنباه الرواة ١ : ٣٤٨ .

(٢٦) انظر ماكتب عن خلف فى إنباه الرواة ، طبقات الزبيدى ، والوفيات .

(٢٧) إنباه الرواة ٢ : ٥٦ .

(٢٨) طبقات الزبيدى ١٧٨ .

(٢٩) إنباه الرواة ١ : ٣٢٩ .

أحسنوا البُنى ، (بضم الباء) ، إنما بنى القوم المكارم ، ولم يبنوا باللبن والطين قال الأصمعى : فلم أزل هائباً لحماد بن سلمه ولزمته[٣٠] .

ومن المحدثين الذين جلس إليهم الأصمعى شعبة بن الحجاج ، وكان يجمع إلى علم الحديث معرفة واسعة بالشعر ، فإذا عقد حلقته لإملاء الحديث ، وأحسَّ بالتعب – عرج على الشعر وتكلم فيه : رأى أبا زيد فى أخريات الناس وكان قد ضجر من إملاء الحديث فاستدناه ، قائلاً :

استعجمت دار مىّ ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

إلىّ يا أبا زيد ، فجعلا يتحدثان ويتناشدان الأشعار ، فقال بعض أصحاب الحديث ، يا أبا بسطام ، نقطع إليك ظهور الإبل ، لنسمع منك حديث النبى ﷺ ، فتدعنا ، وتقبل على الأشعار ! فغضب شعبة ثم قال : يا هؤلاء ، أنا أعلم بالأصلح لى ، أنا والله الذى لا إله إلا هو فى هذا أسلم منى فى ذاك[٣١] .

أعجب شعبة بالأصمعى ، وقدر فيه مواهبه ، ولمح فيه أسباب النضج ، فأولاه ثقته حتى قال له : (لو فرغت للزمتك !)[٣٢] وتصادف أن كان الأصمعى فى مجلس شعبة وهو يفسر (جرس طير الجنة) فقرأها بالشين ، فقال الأصمعى : جرس . فنظر إليه وقال : خذوها منه ، فإنه أعلم بذلك منا[٣٣] .

وحدث شعبة يوما بحديث قال فيه : فذوىَ المسواك (بفتح الياء) ، فقال له رجل حضره : إنما هو فذوَى المسواك[٣٤] ، فنظر شعبة إلى الأصمعى كأنه يستوضحه ، فقال له : القول ما قلت ، فزجر القائل .

هؤلاء بعض شيوخ الأصمعى فى العراق ، وله بعد ذلك جولات فى الجزيرة يأخذ عن أعرابها ، ويستمع إلى علماء الحجاز الذين سنعرف بهم بعد قليل . وإذا قد فرغنا من هؤلاء

---

(٣٠) معجم الأدباء ١٠ : ٢٥٤ .

(٣١) نزهة الألبا ٨٩ ، ٩٠ .

(٣٢) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ .

(٣٣) المزهر ٢ : ٣٥٤ .

(٣٤) يريد أنه بفتح الواو والحقيقة كما فى مختار الصحاح وغيره أن ذوَى بفتح الواو هو اللغة المشهورة وأما ذوِى بكسر الواو فلغة كما قال يونس وأما ابن السكيت فقد أنكر ما قاله يونس .

الذين جلس إليهم الأصمعى وأطال – فإنه يشير إلى صنف آخر تأثر به فى سياق الشعر ورواية اللغة :

يقول التَّوزى فيما يحكيه محمد بن يزيد المبرد عنه : (كنا عند الأصمعى وعنده قوم قصدوه من خراسان ، وأقاموا على بابه فقال له قائل منهم : يا أبا سعيد ، خراسان ، يرجف بعلم البصرة ، وعلمك خاصة ، وما رأينا أصح من علمك ، فقال : لا عذر لى إن لم يصح علمى ، دع من لقيت من العلماء والفقهاء والرواة للحديث والمحدثين ، ولكن قد لقيت من الشعراء الفصحاء وأولاد الشعراء : رؤبة ، ومسرد بن اللعين ، وبلالا . ونوحاً ابنى جرير ، ولبطة ابن الفرزدق ، ومحمد بن علقمة التيمى ، وأبا بابل إهاب بن عمير ، وقطينة اللخمى ، وخطاماً المجاشعى ، وابن ميادة ، والحسن بن مطير ، وابن هرمة ، وابن أذينة ، والحكم الخضرى ، ودكيناً العذرى[٣٥] وابن شوذب المدنى ، وأبا الأخزر الحمانى ، وجندل بن المثنى ، وأبا لحيانة ، والذى هاجاه ، وهو الأبرش .

ولقيت أبا الرجف ، ومقاتل بن أبى داود ، وأبا خيرة ، وأبا العراف ، وأبا العذافر ، وعمارة بن عطية ، وطفيلاً الكنانى ، وقتادة بن يعرب اليشكرى ، وابن الدمينة ، وأبا حية أنس ، وابن الطثرية ، وأبا ترسيس وبفصاحته يضرب المثل ، والموار ، ومصرف بن الحارث ، وابنه الحارث بن مصرف ، وأبا العميثل بن الحارث ، ومحبس بن أرطأة ، وعريفاً الكلبى ، وعلاكم بن نهير ، وابن شراد الخطفانى ، والعجيف العجلى ، وأبا القرين الفزارى ، وحفظت عنهم ، وسمعت منهم ، وسبقنى أبو النجم ، وذو الرمة ، ومعبد بن طوق ، والوعيل ابن كليب ، وزياد الأعجم ، ونهار بن توسعة ، وصخر ومغيرة ابنا حبناء ، وابن عرادة تعليل ولى بعضهم رَوِيّة لا رِوَاية (أى دراسة ودراية) وما عرف هؤلاء غير الصواب : فمن أين لا يصح علمى ؟

لقد جمع الأصمعى فى هذا الخبر صنفين من الرجال : شعراء يسمع منهم الشعر ويرويه ؛ أو أبناء شعراء يسمع منهم شعر آبائهم ؛ وأعراباً يعى عنهم اللغة ، وهذا يوضح لنا اتجاهات الأصمعى ، وأبرزها رواية الشعر واللغة .

---

(٣٥) هكذا وردت فى مقدمة كتاب المتنى من أخبار الأصمعى ، والذى فى الأغانى ٥ : ٢٦٤ (مكينا) وكذلك وضعه المرزبانى فى حرف الميم .

رحلات الأصمعى إلى البادية :

كان طلاّب الشعر واللغة يجدون بغيتهم عند شيوخهم فى حلقات المسجد . فإن أراد بعضهم مزيداً من العلم لجأ إلى الأعراب الذين كانوا ينزلون المربد . يطمئن إلى فصاحتهم . ويسمع منهم الشعر واللغة : كان بشار ، وأبو نواس ، والأصمعى ، وأبو زيد – من زوار المربد فلما فسدت سليقة الأعراب بطول مكثهم فى الحضر أو بالقرب منه تَعيَّن على الطالب الذى ينشُد تمامه أن يجلس إلى خلص الأعراب فى البادية .

شارك الأصمعى فى هذه الرحلات ، وأوغل فى البادية ، وتنقل فى أنحاء الجزيرة على النحو الذى سنشير إليه ، ونكتفى فيه بذكر بعض هذه الرحلات :

تجاوز المربد إلى مكان بين اليمامة والبصرة ، فنزل على رجل من بنى الصيداء من أهل القصيم[٣٦] : يقول الأصمعى : (..... فأصبحت وقد عزمتُ على الرجوع إلى العراق ، فأتيت أبا مثواى فقلت : إنى قد هلعتِ من الغربة ، واشتقت أهلى ، ولم أفد فى قِدْمتى هذه إليكم كبيرَ علمٍ . وإنما كنت أغتفر وحشة الغربة وجفاء البادية للفائدة ! فأظهر توجعاً ، ثم أبرز غداء له ، فتغديت معه ، وأمر بناقة له مهرية – كأنها سبيكة لجين – ..... ثم ركب وأردفنى ، وأقبلها مطلع الشمس ، فما سرنا كبير مسير حتى لقِينا شيخٌ ... فسلم عليه صاحبى . وسأله عن نسبه ، فاعتزى أسديًّا من بنى ثعلبة فقال : أتنشد أم تقول ؟ فقال كُلاًّ قال : أنشدنا رحمك الله ، وتَصَدَّقْ على هذا الغريب بأبياتٍ يعيبن عنك ، ويذكرك بهن فقال : إى هالله إذن ، ثم أنشدنى :

لقد طال يا سوداء منك المواعدُ ... ودون الجَدِ المأمول منك الفراقدُ
تُمَنِّينَنَا بالوصل وعداً – وغيمُكم ... ضبابٌ – فلا صحوٌ – ولا الغيم جائدُ
إذا أنت أعطيتَ الغِنَى ثم لم تَجُدْ ... بفضل الغنى – ألفيت مالَكَ حامدُ
وقل غناء عنك مالٌ جمعته ... إذا صار ميراثاً ، ووراك لاحدُ
إذا أنت لم تعرك بجنبك بعض ما ... يريب من الأدنى رماك الأباعد
إذا الحِلمُ لم يغلب لك الجهل لم تزل ... جنيباً كما استتلى الجنيبةَ قائدُ

(٣٦) القصيم : موضع بين اليمامة والبصرة يشقه طريق بطن فلج : القاموس المحيط ج ٤ مادة ق ص م .

إذا أنت لم تترك طعاماً تُحِبُّه ولا مقعداً تُدعى إليه الولائد
تجلّلت عاراً لايزال يَشُبُّه سبابُ الرجالِ – نَثْرهم والقصائد

ثم أنشد قصيدةً لا تقل جمالاً عن هذه رأينا أن ننقلها لفائدتها يقول :

تعزَّ فإن الصَّبْر بالحُرِّ أجملُ وليس على رَيْب الزمان مُعَوَّل
فلو كان يُغْنى أن يُرى المرء جازعاً لنازلةٍ أو كان يُغْنى التذللُ
لكان التَّعزِّى عندَ كل مصيبةٍ ونازلة بالحر أولى وأجملُ
فكيف وكلٌّ ليس يعدو حِمامَه وما لامرئ عما قضى الله مَرحلُ
فإن تكن الأيام فينا تبدلت ببؤسى ونعمى والحوادث تفعل
فما لَيَّنتْ منّا قناةً صليبة ولا ذللتنا للتى ليس تجمل
ولكن رحلناها نفوساً كريمةً تُحَمَّلُ ما لا يستطاع فتحمِلُ
وقينا بعزم الصبر منا نفوسَنا فصحَّت لنا الأعراضُ ، والناسِ هزّل

قال الأصمعى : فقمت والله وقد أُنْسيت أهلى ، وهان على طول الغربة وشظف العيش سروراً بما سمعت (٣٧) .

ويهزأ بغلام من بنى أسد ، فيُخلِفُ ظَنَّه ذلك الغلام : يروى عبد الرحمن عن عمه قال : بينا أنا بحمى ضرية (٣٨) إذ وقف علىّ غلام من بنى أسد فى أطمار ما ظننته يجمع بين كلمتين ، فقلت : ما اسمك ؟ ، قال : حُرَيْقِيص ، فقلت : أما كفى أهلك أن يسموك حرقوصا حتى حقروا اسمك ؟ ، فقال : إن السَّقَط ليحرق الحَرَجَة ، فعجبت من جوابه ، وقلت : أتنشد شيئاً من أشعار قومك ؟ قال : نعم ، أنشدك لموّارِنا (٣٩) ، فقلت افعلْ . فقال :

سكتوا شُبَيْثاً والأحَصّ وأصبحوا نـزلت منـازلهم بنـو ذبيان
وإذا يقال : أتيتمو لم يبرحوا حتى تقيم الخيل سوق طعان (٤٠)

وفى خلال رحلاته ينقل إلينا الأصمعى بعض الصور القاسية التى كان يعانيها الأعراب : من ذلك ، ما يرويه عبد الرحمن عن عمه :

---

(٣٧) الأمالى ١ : ١٧٠ ، وزهر الآداب ٤ : ١٢٣ ، والمزهر ٢ : ٣٠٥ .

(٣٨) الحمى : حميان فحمى ضرية ، وحمى الربذة ، الأولى أشهرها ، وأسيرها ذكرًا وهى حمى كليب بن وائل وبها قبر كليب : معجم البلدان ٣ : ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٣٩) هو الموار بن سعيد بن حبيب الفقعسى من بنى أسد بن خزيمة .

(٤٠) الأمالى ١ : ٦٦ ، ٦٧ .

(وقف علينا أعرابى ونحن برملة اللّوى فقال : رحم الله امرأً تمجج أذناه كلامى ، وقدم معاذة من سوء مقامى ، فإن البلاد مجدبةٌ ، والحالَ مُسغبةٌ ، والحياء زاجرٌ يمنع من كلامكم ، والفقر عاذر يدعو إلى إخباركم ، والدعاء إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأً أمَرَ بِبِرّ أو دَعَا بِخَيْرٍ .

فقلت : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : اللهم غفراً ، سوء الاكتساب يمنع من الانتساب (٤١) .

وتسوقه أقدامه إلى وادٍ موحش ، فيجد عجوزاً ، فيحملها على الكلام قال : إنى أراك معتزة فى هذا الوادى الموحش ، والحلة منك قريب ، فلو انضممت إلى جنابهم ، فأنست بهم قالت : (يا بن أخى ، إنى لآنس بالوحشة ، وأستريح إلى الوحدة ، ويطمئن قلبى إلى هذا الوادى الموحش ، فأتذكر من عهدت ، فكأنى أخاطبُ أعيانَهم وأتراءى أشباحهم ، وتتخيل لى أندية رجالهم ، وملاعب ولدانهم ، ومندى أموالهم والله يابن أخى ، لقد رأيتُ هذا الوادى يشع اللديدين ، بأهل أدواح وقباب ، ونعم كالهضاب ، وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح يبارون الرياح ، ويحمعون الصباح ، فأحال عليهم الجلاء قمًّا بغرفةٍ . فأصبحت الآثارُ دارسةً ، والمحال طامسة ، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به (٤٢)

وفى بلاد بنى عامرٍ يجذبه صوت رجل يقول :

أحقًّا عبادَ الله أن لست ناظراً إلى قرقرى يوماً ، وأعلامِها الغبرِ
كأن فؤادى كلما مرَّ راكبٌ جناحُ غرابٍ رام نهضاً إلى وكرِ

إلى آخر القصيدة ، قال : كان نَدِيَّ الصوت ، فلما رآنى أومأ إلىّ فأتيتهُ فقال : أأعجبك ما سمعت ؟ فقلت : إى ، والله ، فقال : من أهل الحضارة أنت ؟ قلت : نعم ، فسأله عن نسبه ، وأكرمه ، ولما دعاه إلى الطعام قال الأصمعى : إنى إلى غير هذا أحوج ! قال : وما هو ؟

قال : تنشدنى ، قال أصبْ فإنى فاعل ؟ قال الأصمعى : فلقمتُ لقيمات وقلت : الوعد ، فقال : ونُعْمَى عين ، وأنشدنى ... (٤٣) .

---

(٤١) كتاب الصناعتين ١٠ .

(٤٢) الأمالى ٢ : ٦ .

(٤٣) الأمالى ١ : ١١٧ – ١١٨ ط دار الكتب سنة ١٣٤٤ هـ – ١٩٢٦ م .

ويذهب إلى الحجاز يؤدى فريضة الحج ، فلا يفوته أن يفيد من رحلته ، ولا يكتفى بسماع اللغة والشعر ، وإنما يتجاوز هذا إلى معرفة أحوالهم ومعاشهم ، وهو يحكى هذا فيقول : (رأيت أعرابيةً ذات جمال تسأل بمنى ، فقلت لها : يا أمة الله ، تسألين ولك هذا الجمال قالت : قدر الله فما أصنع قلت : فمن أين معاشكم ؟ قالت : هذا الحاج نسقيهم ونغسل ثيابَهم . قلت : وإذا ذهب الحاج فمن أين ؟ فنظرَتْ إلىَّ وقالت : يا صَلْتَ الجبين ، ولو كنّا نعيش من حيث نعلم ما عشنا)[٤٤] .

ووجدناه مرة أخرى فى الحجاز فى غير أشهر الحج ولا رغبة له – فيما نرجح – إلا طلب اللغة ، يقول ، هجم علىّ شهر رمضان وأنا بمكة ، فخرجت إلى الطائف لأصوم بها ....[٤٥] .

هذه أمثلة تشير إلى زياراته للبادية ، وأخرى مبسوطة فى بطون الكتب ، كلها تشير إلى أنه كان يجوب البادية ، من نجد إلى الطائف إلى مكة إلى منى ... لا هم له إلا سماع الأعراب واستنشادهم ، ونلمح فى كثير منها اصطناع المناشدة والمحاورة والمناقشة ، فإذا انتهى أربه من عامة العرب على هذه الصورة – جلس إلى علماء الحجاز ، وأفاد من علمهم ، وسنعرّف بخواصهم بعد قليل .

كانت رحلات الأصمعى إلى البادية مدرسة أمدته بمعالم الحياة فيها ، فاستعان بذلك على فهم الشعر واللغة ، وتصحيح الأخبار ، وردّ كل قول إلى قائله استناداً إلى ما عرفه من طبيعة هذه الأماكن ومن طبائع ساكنيها ، انظره يقول : قرأت على أبى عمرو بن العلاء ، شعر المخبل السعدى[٤٦] ، فلما بلغت إلى قصيدته التى أولها :

ذكر الرباب وذكرها سقم

مرّ فيها ، فلما وصل إلى قوله :

وأرى لها داراً بأغدرة السيدان لم يـدرس لهـا رَسْـمُ

فقال أبو عمرو : قد رابنى هذا ، وكيف يكون هذا المخبل وأغدره السيدان وراء كاظمة ؟!

---

(٤٤) العقد ٣ : ٢١٠ .

(٤٥) العقد ٦ : ٢٥١ .

(٤٦) هو أبو يزيد ربيعة بن مالك بن ربيعة بن عوف من بنى أنف الناقة من تميم ، شاعر فحل من مخضرمى الجاهلية والإسلام .

وهذه ديار بكر بن وائل ، ما أرى الشعر إلا لطرفة ! قال الأصمعى : فلم يزل ذلك فى نفسى حتى رأيت أعرابياً ، فصيحاً من بكر بن وائل ينشد من هذه القصيدة أبياتاً منها :

وتقول عاذلتى وليس لها بغدٍ ، ولا ما بعده علمُ
إن الثراء هو الخلود وإنّ المرء يكرب يومَه العدمُ
ولئن بنيت إلى المشقّر فى هضْب تقصر دونه العصمُ
لتنقبَنْ عنى المنية إنّ الله ليس كحكمه حكم[٤٧]

وسمع أبا عبيدة ينشد هذا البيت ، وينسبه لحاجب بن زرارة :

شتان هذا والعناق والنوم والمشرب الدائم فى ظل الدوم

فلم يرق له هذا ، لأن حاجباً نجدى ، والدوم شجر ينبت بالحجاز ، وفسر الدوم – بالدائم .

علاقة الأصمعى بعلماء الحجاز :

رأى فريق من العلماء فى رحاب الحجاز ، وفى تقربهم من بلد الرسول ﷺ ، وفى بعدهم عن السلطان أمْناً لدينهم ودنياهم ، فتزلفوا إلى الله بالعكوف على قراءة القرآن ، ومذاكرة حديث الرسول ﷺ ، وروايته وإملائه ، وكانت النزعة الدينية هذه هى النزعة الغالبة على علماء الحجاز ، وإن لم يستطع بعضهم أن يتخلّص من فطرته الأصيلة فى الشعر واللغة .

كان الأصمعى يجوب الجزيرة بألواحه ينشد العلم بكل صنوفه وألوانه ، فكان طبيعياً أن يلتقى بهؤلاء العلماء ، يجلس إلى بعضهم الشهر والشهور ، واليوم والأيام ، أو يلتقى بهم التقاء عابراً فيبادلهم الرأى والمعرفة :

جلس إلى نافع بن عبد الرحمن[٤٨] قارئ المدينة ، فلازمه ، وأخذ عليه قراءته ، وأصبح من أوثق العارفين بها ، حتى كان صاحب هذه القراءة فى مسجد البصرة ، وأحسب أن الأصمعى قد طال مكثه عند أبى رويم حتى تأكدت صلته بعالم آخر كان يجلس إلى نافع ، هو مالك بن أنس .

كان أبو عبد الله مالك بن أنس من علماء المدينة ، وصاحب رواية الحديث فيها ، أخذ

---

(٤٧) معجم البلدان ١ : ٢٩٤ .

(٤٨) الفهرست ٤٢ ط الرحمانية .

قراءة القرآن عن نافع ، وسمع الحديث من الزهرى ، ونافع مولى ابن عمر ، وكانت علاقة الأصمعى بمالك علاقة تبادل فى المعرفة ؛ إذ يقول صاحب خلاصة تذهيب الكمال : إنّ مالكاً روى عن الأصمعى فى جملة من التابعين منهم يحيى بن معين ، ونصر بن على ، وعمر بن شبه (٤٩) .

ومن الذين جلس إليهم الأصمعى فى الحجاز ، وطالت الصحبة معه : سفيان بن عيينة المحدث ، فتوطدت صلته به ، وتعرف بعدد كبير من أصدقائه فى مجالسه ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار الأصمعى أنه رثى أحداً من شيوخه بمرثية شعرية غير سفيان ، فأشاد بفضله ، وعدد أقطاب المحدثين ، فقال :

أمست مجالسه وحشاً معطلةً من قاطنين وحُجَّاج وعُمَّار
من للحديث عن الزهرى حين ثوى وللأحاديث عن عمرو بن دينار

وجلس الأصمعى إلى الشافعى ، وكانت له شهرة وسبقٌ فى اللغة والشعر : فقد تعلم القرآن صغيراً ، ثم اتجه لطلب الشعر ، وهو يحكى ذلك فيقول :

خرجت من مكة فلزمت هذيلاً فى البادية أتعلم كلامها ، وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم ، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الأدب والأخبار وأيام العرب ، فمرّ بى رجل من الزبيريين من بنى عمى ، فقال لى : يا أبا عبد الله ، عزَّ علىَّ ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه (٥٠) وقال :

(أقمت فى بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها ...) (٥١) .

وكان أهل الحديث يرون فى مسلك الشافعى هذا شيئاً يَعُدّونه عليه ، وينقدونه بسببه : أشار إلى ذلك مصعب بن الزبير ، فقال : كان أبى والشافعى يتناشدان الأشعار ، فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظاً ، وقال : لا تُعلم بهذا أحداً من أهل الحديث ، فإنهم لا يحتملون

---

(٤٩) خلاصة تذهيب الكمال ٢٠٧ .

(٥٠) معجم الأدباء ١٧ : ٢٨٦ .

(٥١) تاريخ بغداد ٢ : ٦٣ .

هذا[٥٢] ، كما كانوا يضيقون بجلاسه من أهل الشعر واللغة ، ويستغربون وجودهم فى مجلسه . وبلغ بالحسن بن محمد الزعفرانى الغضب يوما حتى كاد يطردهم فقال لرجل من رؤسائهم : إنكم لا تتعاطون العلم (يقصد الحديث) ، فلم تختلفون معنا ؟ ، قالوا : نسمع لغة الشافعى .

كان الشافعى أحسنَ من يروى شعر هذيل ، لذلك رحل إليه الأصمعى ، وأعاد على مسامعه ما يعرفه منه ، والأصمعى يشير فى كلام له إلى أنه كان يعرف شعر الهذليين ، ولكنه قرأه على محمد بن إدريس رغبةً فى تصحيحه ، ونص عبارته :

(صححْتُ أشعارَ هذيلٍ على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعى)[٥٣] .

وتحمل هذه العبارة ما يفيد أن الشافعى حينئذ كان شابًّا فى مقتبل العمر ، ولهذا نميلُ إلى القول بأن الأصمعى لقى الشافعى فى الحجاز وإن لم تشر الأخبار عن مكان التقائهما : ذلك أن المتتبع لتاريخ الشافعى يعرف أنه ولد فى سنة مائة وخمسين من الهجرة ، ولم يأت إلى العراق قبل سنة أربع وثمانين ومائة ، حرَّرَ ذلك الأستاذ مصطفى عبد الرازق فقال : (والذى تحرر لنا بالطرق الصحيحة أن قدوم الشافعى أول ما قدم كان سنة ١٨٤ ، وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنتين ، وأنه لقى محمد بن الحسن ، وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز[٥٤]).

نعم كان الأصمعى حينئذ فى بغداد ، ولكنا نعتقد أن الشافعى الذى طُلب من قبل الرشيد متهماً ينتظر القتل كرملائه – كان فى شغل آخر عن إنشاده أشعار هذيل كما تحمل عبارة الأصمعى (يقال له محمد بن إدريس) إشارة إلى أن أمره لم يكن قد عرف بعد .

كيف تأثر الأصمعى بشيوخه ؟

كان لشيوخ الأصمعى مميزات خاصة انتقلت بعضها إليه بأغلب صورها ، وأحياناً تأثر ببعض منها ، وكان أول المؤثرين فيه أبو عمرو بنُ العلاء ، ربما لطول الصحبة ، بالإضافة إلى أن الأصمعى كان يجل أبا عمرو ويثق فيه ، فكان يرى رأيه ، ويذهب مذهبه .

كان أبو عمرو يُعِدّ الشعرَ للمتقدمين من الجاهليين والمخضرمين ، ولا يَحْسُنُ رأيه فى المحدثين : فهو يعجب بشعر جرير والفرزدق وأضرابهما ، ويعدهم مُوَلَّدين بالإضافة إلى

---

(٥٢) معجم الأدباء ١٧ : ٢٨٦ .

(٥٣) معجم الأدباء ١٧ : ٢٩٩ .

(٥٤) الإمام الشافعى ٢٩ للأستاذ مصطفى عبد الرازق .

القدامى وهكذا كان الأصمعى يغالب حِسه وانفعاله إزاء أشعار المحدثين ، يُقِرُّ لهم بالمقدرة ، ويهتزّ لشعرهم ، ولكنه كان أمام مبدأ ورثه عن أستاذه ، يقرأ شعر بَشار فيقول : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم[٥٥] ، ويسمع من التوزى شعر السيد الحميرى فيطرب له ، ويستعيده من التوزى ، ثم يقول : قَبَّحه الله ! ما أسلكه لطريق الفحول ، لولا مذهبه ولولا ما فى شعره – ما قدمت عليه أحداً من طبقته[٥٦] أو يقول : ما أطبعه وأسلكه لسبيل الشعراء ! والله لولا ما فى شعره من سبِّ السَّلف ما تقدّمه من طبقته أحد[٥٧] وفى هذه الأحكام تراه إذا أراد أن يرفع صاحبه قَرَنَه بالقدامى لبيان هذا الوجه من التوثيق ، ثم يضعه موضعاً من أهل طبقته . وعلق يوماً على قول ابن هرمة :

لا أمتع العوذ بالفصال ولا أبتاع إلا قريبةَ الأجل

بقوله : أما ترون كيف قال ؟ والله لو قال هذا حاتم ما زاد ، ولكان كثيراً ، ثم يقول : ما يؤخره عن الفحول إلا قرب عهده . وهكذا نراه يضيف ميزاناً جديداً إلى موازين النقد ، هو عامل القدم ، تأثراً بأستاذه أبى عمرو بن العلاء .

وكان أبو عمرو يرى أن الأصل فى الرواية هو السماع عن العرب ، ولا ينساق إلى ما ذهب إليه الآخرون من الالتجاء إلى القياس منذ نادى به ابن أبى إسحق الحضرمى ، وكذلك كان الأصمعى لا ينشط للمقاييس ، ولا لحكاية التعليل ، وإنما يتوفر على ما يروى ويحفظ[٥٨] ، ولهذا هاجم ابن جنى طريقه ابى عمرو بن العلاء والأصمعى واختار لهذا الهجوم حديثًا لأبى عمرو بن العلاء برواية الأصمعى . يقول أبو عمرو :

سمعتُ رجلاً من اليمن يقول : فلان لغوب ، جاءته كتابى فاحتقرها . فقلت له : أتقول : جاءته كتابى ؟ قال : نعم ، أليس بصحيفة ؟

وعقّب ابن جنى على هذا الخبر بقوله : « أفتراك تريد من أبى عمرو وطبقته ، وقد نظروا وتدرّبوا وقاسوا وتصرّفوا أن يسمعوا أعرابيًّا جافياً غفلاً يعلل هذا الموضع بهذه العلة ، ويحتج لتأنيث المذكر بما ذكره ، فلا يهتاجوا هم لمثله ، ولا يسلكوا فيه طريقته فيقولوا : فعلوا كذا وكذا ، وصنعوا كذا لكذا وقد شرع لهم العربى ذلك ، ووقفهم على سمته وأمَّه » ؟[٥٩]

---

(٥٥) الأغانى ٣ : ١٤٣ ط دار الكتب .

(٥٦) الأغانى ٧ : ٢٣٢ ط دار الكتب .

(٥٧) الأغانى ٧ : ٢٣٦ .

(٥٨) الخصائص ١ : ٣٦١ ط دار الكتب .

(٥٩) الخصائص ١ : ٣٤٩ .

وكان أبو عمرو يكره الكلام فى القدر ، وقد تجلّى هذا عندما عرضنا موقفه من معمر وقد سأله عن قوله تعالى : (وما كنا له مقرنين) ، ومن قول أبى عمرو له (حسبك قتادة ، فلولا كلامه فى القدر ... ما عدلت به أحداً من أهل دهره)[٦٠] .

وكذلك كان الأصمعى يكره الكلام فى القدر : اتهمه الجاحظ بالمانَوِيّة لولا أن رده عباس بن رستم بقوله : لا والله ، ولكن نذكر حين جلست إليه – تسأله ، فجعل يأخذ نعليه بيده وهى مخصوفة بحديد ويقول : نعم قناع القدرى ، نعم قناع القدرى فعلمت أنه يعنيك[٦١] .

وسئل أبو عثمان المازنى : لم قلّت روايتك عن الأصمعى ؟ قال : رُميت عنده بالقدر والميل إلى الاعتزال .

وكان عبد الملك يقرن المتكلمين فى القدر بشاربى الخمر ، وله فى هذا كلمة مأثورة . (ثلاثة تحكم لهم بالمروءة حتى يعرفوا : رجل رأيته راكباً ، أو سمعته يعرب ، أو تشممت منه رائحة طيب ، وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذ فى محفل ، أو رأيته يتكلم فى مصر عربى بالفارسية ، أو رأيته على ظهر الطريق ينازع فى القدر)[٦٢] .

ولما كان أبو عمرو بن العلاء سُنّيًا يلتزم بآثار السلف ، ويبتعد عن الأهواء والأحزاب والفرق – كان الأصمعى كذلك ، وأصبحا يُذْكَران معاً ضمن أربعة من الأجلاء اشتهروا بذلك : يقول الخطيب البغدادى رواية إبراهيم الحربى : (كان أهل البصرة أهل العربية منهم أصحاب الأهواء إلا أربعة ، فإنهم كانوا أصحاب سنة : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل ابن أحمد ، ويونس بن حبيب ، والأصمعى) .

وتأثر الأصمعى بشيخه فى جانب التحرج والتأثم والتزام الدقة فيما يرويه أو يحكيه ، وكان أبو عمرو يتحرج من الكذب أو شبهته فأحرق فى أخريات أيامه ما جمع من علم ، وما دوّنَهُ فى كتب خشيةَ أن يكون فيها غير الصحيح ، فيحمل وزر ما كتب وكذلك كان الأصمعى : فإنه وإن لم يحرق كتبه – كان يأمر ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله بكتابة ما ينتهى إلى ثقة

---

(٦٠) وفيات الأعيان ٣ : ٢٤٨ .

(٦١) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٧ .

(٦٢) عيون الأخبار ١ : ٢٩٦ .

الأصمعى ، وأن يُجَحفِلَ[٦٣] ما عداه – على حد تعبيره .

وبالجملة فإن أبا سعيد كان صورةً قريبةً من أبى عمرو بن العلاء سواء فى الناحية العلمية أو الناحية الروحية ، ويبدو أن الأصمعى قد تشبع بنزعة أبى عمرو ، فلم يتأثر بغيره من العلماء إلا تحصيله لما عندهم ، فقد علمنا أنه جلس طويلاً ، وسمع كثيراً من خلف الأحمر ، ولكنه لم يتأثر بطريقته : كان خلف يعرف طريقة الشعراء القدامى ومذاهيهم فى القول ، فينحلهم شعرا من عنده أوينسب لهم ما لم يقولوه ، لم يتأثر الأصمعى بشىء من هذا ، ولم يعرف عنه أنه غيّر رواية الشعر إلا فى بيت واحد سنشير إليه بعد . أما قول الشعر ينسبه للجاهليين فكان الأصمعى بمنجاة عن ذلك بطبيعته ، إذكان لا يقول الشعر إلا قليلا ، ولم تكن له مقدرة خلف ، وهو إن قال البيت والبيتين لا يصل إلى مرتبة الشعراء .

حلقة الأصمعى بالبصرة :

عرّفنا بالبيئات العلمية التى طرقها الأصمعى فى سبيل الطلب والتحصيل ، فمتى جلس ليُعَلِّم ؟ إننا لا نستطيع أن نحدد هذا الزمن تحديدًا دقيقاً إلا من خبر رواه السيوطى يقول فيه : إن القُرَّاء كانوا يحضرون إلى حلقة الأصمعى لأخذ قراءة نافع عليه برغم حداثته[٦٤] . وهناك من الأسباب ما يجعلنا نقف أمام هذا الخبر مرتابين : فلقد كان صاحب هذه القراءة على قيد الحياة ، ويمارس نشاطه فى المدينة حتى سنة تسع وستين ومائة ، وجلوس الأصمعى بالبصرة ليُقرئ الناس قراءة نافع شىء يدعو إلى تقليب الأمر على وجوهه ؛ إذ كان من الممكن لهؤلاء الطلاب أن يتوجهوا برغبتهم إلى صاحب القراءة بالمدينة إلا إذا كان الأصمعى قد أجيز بذلك من صاحبها ، وأنه أصبح نائباً عنه فى البصرة ، وهذا لم يرد به خبر ؛ كما أن السيوطى لم يذكر المصدر الذى نقل عنه .

ومهما يكن من أمر فحلقة الأصمعى اشتهرت بدرس الشعر ، والنظر فى معانيه ، ودرس اللغة والغريب ، والأخبارُ فى هذا متعددة ، وتكاد تجمع على أن الأصمعى انتهى فى ميدانه هذا إلى درجة التخصص : فالكسائى مثلاً يقول فى رسالة له : لست أعرض لك فى الشعر

---

(٦٣) يجحفل : يرمى .

(٦٤) المزهر ٢ : ٢٦١ ط السعادة .

والمعانى والغريب ....[٦٥] ويقول المبرد : كان الأصمعى أسد الشعر والغريب والمعانى [٦٦] .

وانتهت الرياسة فى هذا الميدان إلى أبى زيد سعيد بن أوس ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعى ، فى مطلع النصف الأخير من القرن الثانى فى مسجد البصرة ، وصار أمر اللغة والنحو والشعر متنازعاً بينهم ، ولكل واحد منهم زاوية برّز فيها ونبغ أكثر من صاحبه والمبرد يجمل رأيه فيهم بقوله :

(كان أبو زيد الأنصارى صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعى فى النحو ، وكان أبو عبيدة أعلم من أبى زيد والأصمعى بالأنساب والأيام والأخبار ، وكان الأصمعى بحراً فى اللغة لا يعرف مثله فيها وفى كثرة الرواية) [٦٧] . واستطاع أبو زيد أن يحصل على صداقة زميليه ، ويفرض عليهما احترامه ؛ كان الأصمعى يأتى إلى حلقة أبى زيد ، فيقبل رأسه ، ويثنى عليه قائلاً : هذا عالمنا ومعلمنا منذ كذا من الزمن[٦٨] بالرغم مما كان بينهما من اختلاف فى الرأى فى المجال اللغوى حين يتفق أبو زيد وأبو عبيدة وينفرد الأصمعى بالخلاف لما عرف عنه من التضييق ، ولكن الأمر كان على غير هذا بين معمر وأبى سعيد . فأحياناً يتلازمان ، ويدخلان المسجد على اتفاق ومحبة يتجاذبان النكات والملح ، وأحياناً تشتد بينهما العداوة والخصومة ، فيقف الأصمعى على باب المسجد قائلاً : انظروا لا يكون هنا !

وانقسم الناس فى أمرهما بسبب من عقيدتهم أو أهوائهم . فإسحق الموصلى بدأ مؤازراً للأصمعى ويقول فيه : عجائب الدنيا معروفة معدودة منها الأصمعى ![٦٩] ويقول : ما رأيت أحداً قط أعلم بالشعر من الأصمعى ، ولا أحفظ لجيّده ، ولا أحضر جواباً منه ، ولو قلت : إنه لم يك مثله — ما خفت كذبا [٧٠] ويروى عنه صاحب الوفيات قوله : لم أر الأصمعى يدّعى شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه [٧١] .

---

(٦٥) إنباه الرواة ٢ : ٢٧٢ .

(٦٦) أخبار النحويين البصريين ٥٨ .

(٦٧) إنباه الرواة : ٢ : ٢٠١ ، وتاريخ بغداد ١٠ : ٤١٤ .

(٦٨) منذ عشرين سنة فى رواية ، وخمسين سنة فى رواية أخرى .

(٦٩) المزهر ٢ : ٤٠٤ .

(٧٠) الموشح ٢٩٧ .

(٧١) وفيات الأعيان ٣ : ٣٤٤

كان هذا رأى إسحق الموصلى حين كان يأخذ العلم عن الأصمعى ، ويخرج من حلقته يعدد مآثره وأفضاله ، وظل أمره على هذا النحو حتى رحل الأصمعى إلى بغداد ، فتغير رأيه فيه على النحو الذى سنشير إليه ، بعد .

أما أبو نواس فكان إلى جانب أبى عبيدة على طول الخط ، ولم يحسن رأيه فى الأصمعى فى يوم من الأيام ، ونحن لا نستطيع إغفال رأى رجل كأبى نواس الذى شارك فى العلوم الإسلامية والدينية واللغة والشعر وخرج منها بقسط كبير[٧٢] إلا أن يكون رأيه عن هوى ورغبة فى مساندة أبى عبيدة لاتفاقهما على كراهية العرب :

كان أبو نواس عندما يفاضل بين الرجلين – كان يصيب مميزاتهما حقيقةً ، ولكن فى أسلوب يقلِّل من شأن الأصمعى ، فهو يعلم أن أبا عبيدة جمّاعٌ للعلم ، ولكنه لم يرزق القدرة على التعبير حتى إذا قرأ البيت من الشعر لم يُقِمْ إعرابه[٧٣] على نقيض الأصمعى الذى كان أعذبَ من تحدث وحكى : فكان أبو نواس يعبر عن ذلك بقوله : كان الطلبة إذا أتوا مجلس الأصمعى اشتروا البعر فى سوق الدر ، وإذا أتوا مجلس أبى عبيدة اشتروا الدر فى سوق البعر ! [٧٤] وكان الناس يعرفون ميله إلى أبى عبيدة ، وأنه يشنأ الأصمعى ويهجوه . قيل له ما تقول فى الأصمعى ؟ قال : بلبل فى قفص ! قيل فما تقول فى خلف الأحمر ؟ قال : جمع علم الناس وفهمه قيل فما تقول فى أبى عبيدة ؟ قال : ذاك أديم طوى على علم ! [٧٥] ، وظل هذا رأى أبى نواس لم يغيره حتى بعد سفره إلى بغداد ، وهناك قيل له : قد أشخص أبو عبيدة والأصمعى إلى الرشيد ، فقال : أما أبو عبيدة فإنهم إن أمكنوه من سفره قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعى فبلبل يطربهم بنغماته [٧٦] .

والحقيقة أن العلاقة بين أبى نواس وأبى عبيدة كانت علاقة ود وصداقة منذ كانا فى البصرة : كان أبو عبيدة يحتمل من صاحبه ما لا يحتمله من أى شخص آخر ، وهو الرجل الذى لا يصبر على أذى أو مشاكسة ، كان أبو نواس يضع له نوعاً من الحلوى يسيل إذا اشتد الحر على أسطوانة أبى عبيدة فلا تلبث أن تسيل على قفاه ! ويكتب أوراقاً يغمز فيها أبا عبيدة

(٧٢) انظر أخبار أبى نواس١ : ٦ .
(٧٣) معجم الأدباء ١٩ : ١٥٦ .
(٧٤) معجم الأدباء ١٩ : ١٥٥ .
(٧٥) أخبار أبى نواس ١ : ١٥٤ .
(٧٦) إنباه الرواة ٢ : ٢٠١ .

ويوزعها فى مجلسه إلى أن تصل إليه ، وفيها ما فيها من اتهام وتهكم فكان أبو عبيدة يقبل منه كل هذا ، كما كان رأيه فى أبى نواس لا يقل عن رأى أبى نواس فيه ، وكأنهما يتبادلان المجاملة فيقول : ذهبت اليمن بجيد الشعر فى قديمه وحديثه – امرؤ القيس فى الأوائل ، وأبو نواس فى المحدثين أو يقول : شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس ، وحسان بن ثابت ، وأبو نواس أو يقول : أبو نواس فى المحدثين مثل امرئ القيس فى المتقدمين : فتح لهم هذه الفطن ، ودلهم على المعانى ، وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف فى فنونه (٧٧) .

كان طبيعيًا أن تنتج هذه الصداقة وهذا الإلف بين الرجلين رأى كل منهما فى صاحبه واتفاقهما على الأصمعى

أما خلف الأحمر وقد طالت الصحبة بينه وبين الأصمعى ، وأتيح له أن يعرف الكثير عنه وأن يزن علمه – فإنه كان يرى فرق ما بين الأصمعى وأبى عبيدة إذا كان مجال المفاضلة بينهما هو الشعر : تراه ينصح كيسان بقوله : ويلك ... ! الزم الأصمعى ، ودع أبا عبيدة ؛ فإنه أفرس الرجلين ببيت شعر (٧٨) .

ولنا أن نتمثل فى مسجد البصرة صورةً لثلاث حلقات : أبو زيد ومن حوله طلابُ اللغة والنحو ، وأبو سعيد صاحب الغريب والشعر واللغة ، وأبو عبيدة وقد برز فى الأنساب والأخبار وأيام الناس .

تلامذة الأصمعى :

إذا تمثلنا الأصمعى على هذه الصورة التى أدركنا كثيرًا من جوانبها – أول راوية للشعر بعد خلف فى الترتيب الزمنى فى البصرة ، ومن أساطين اللغة وغريبها بخاصة . ثقة فيما يرويه ، حلو الحديث ، يدفع الملل عن طلابه بالنادرة الفكهة ، أو يعلّق على تصحيف أو خطأ بتهكم لطيف – كان من الطبيعى أن تكون حلقته عامرةً بالطلاب ، وبجموع البصريين الذين يختلفون إلى المسجد لسماع هذا النوع من العلم ، ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا : إنه لم يخرج من البصرة عالمٌ باللغة والشعر والغريب فى عصر الأصمعى إلا جلس إليه ! بل كان من مفاخر الرجل منهم أن يقول فى ملأ من الناس : أخذت عن الأصمعى ! ولقد رد أبو العيناء على الخليفة

---

(٧٧) أخبار أبى نواس ١ : ٥٢ .

(٧٨) زهر الآداب ١ : ٢٥١ .

المتوكل حين اتهمه بأنه رافضيٌّ بقوله : وكيف أكون رافضيًا وبلدى البصرة ، ومنشئى فى مسجدها الجامع ، وأستاذى الأصمعى ! (٧٩) .

وحصْر طلاب الأصمعى أمر عسير ، وقد أشار الخطيب البغدادى إلى بعضهم ، فذكر ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله ، وأبا عبيد القاسم بن سلام ، وأبا حاتم السجستانى ، وأبا الفضل الرياشى ، وأحمد بن محمد اليزيدى ، ونصر بن على الجهضمى ، ورجاء بن الجارود ، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه ، ومحمد بن إسحق الصاغانى ، ويعقوب بن سفيان الفسوى ، وبشر بن موسى الأسدى ، وأبا العباس الكديمى فى آخرين (٨٠) ؛ وربما عنى الخطيب البغدادى فى هذا الحصر بأمر الذين رووا عنه الحديث ، وفى كتب الأدب جمع كبير من الطلاب نكتفى بالتعريف بأشهرهم مبتدئين بأولئك الذين تأثروا بالأصمعى أكثر من غيره ، أو جاءوا يتمّون علومهم عليه .

من هؤلاء الطلاب أبو حاتم السجستانى ، لازم الأصمعى مدة طويلة يحبه ، ويجله ، ويقدر علمه ، وكان موقفه منه كموقف الأصمعى من أبى عمرو بن العلاء . والذى بأيدينا من كتب الأصمعى يكشف لنا عن مدى هذه الصلة ، فكلها أو جلها مروية عن أبى حاتم .

تلقى أبو حاتم عن الأصمعى اللغة والشعر ، وكان حظه من النحو – كحظ أستاذه – قليل : فلم يك حاذقاً فيه ، وكان إذا اجتمع هو وأبو عثمان المازنى فى دار عيسى بن جعفر الهاشمى تشاغل أو بادر بالخروج خوفًا من أن يسأله عن مسألة فيه وكان أبو حاتم جمَّاعاً للكتب ، ويتجر فيها ، توفى سنة خمس وخمسين ومائتين (٨١) .

ومن طلابه عبد الرحمن بن عبد الله وهو ابن أخى الأصمعى ، ويبدو أنه أوقف نفسه على مجرد الرواية عن عَمّه ، وكتب التراجم تشير إليه تحت هذه الصفة ، وأغلب الأخبار التى نسبت إلى الأصمعى مرويّة عن عبد الرحمن ، ولقد استقر ذلك فى علم الناس حتى كانت عبارة (عبد الرحمن عن عمه) قد أدركها الذيوع والانتشار تعنى عبد الرحمن بن عبد الله عن أبى سعيد الأصمعى ، استغنى عن التطويل لعلم العامة بها كعلم الخاصة .

ويقولون عن أحمد بن حاتم الباهلى – أنه صاحب الأصمعى ، وأحيانًا يذكرونه على أنه

---

(٧٩) زهر الآداب ١ : ٢٥١ .

(٨٠) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ .

(٨١) انظر إنباه الرواة ٢ : ٥٩ ، ومعجم الأدباء ١١ : ٢٦٢ ، وبغية الوعاة ٢٦٥ .

ابن أخته – كان قوىّ الصلة بالأصمعى . فروى كتبه . واطمأن لذلك أبو سعيد فقال : ما يصدق علىّ إلا أبو نصر[٨٢] فكان الذين يطلبون علم الأصمعى يذهبون وراء أحمد بن حاتم وربما احتالوا على تصيد هذه الكتب منه ونسخها : يقول حمزة الأصفهانى (... ولما أقدم الخطيب بن أسلم أبا محمد الباهلى صاحب الأصمعى إلى أصبهان . نقل معه مصنَّفات الأصمعى وأشعار شعراء الجاهلية والإسلام مقروءة على الأصمعى . وكان قدومه أصبهان بعد سنة عشرين ومائتين . فأقام أشهرًا . ثم تأهب منها للحج ، فدخل إلى عبد الله بن الحسن ، وسأله أن يدله على رجل يسلم إليه دفاتره إلى أن يرجع . فقال له : عليك بمحمد بن العباس ، وكان مؤدب أولاد عبد الله بن الحسن مقبول القول ، فسلم إليه الباهلى دفاتره وخرج . فأنسخها محمد بن عبد الله الناس ، فقدم الباهلى وقامت قيامته ... ! [٨٣] .

وكان أبو عبيد القاسم بن سلام من الذين جلسوا إلى علماء البصرة . فأخذ عن أبى زيد ، وأبى عبيدة ، والأصمعى ، وأبى محمد اليزيدى ، ثم تزود من الكوفيين ، فأخذ عن ابن الأعرابى ، وأبى زياد الكلابى الأعرابى . ويحيى بن سعيد الأموى وغيرهم ، وكان جامعًا مُدَوِّنًا أكثر منه راوية . فقيل فى وصف كتابه (الغريب المصنف) : إنه اعتمد فيه على كتاب عمله رجل من بنى هاشم جمعه لنفسه ، وأخذ كتب الأصمعى فبوب ما فيها . وأضاف إليها شيئاً من علم أبى زيد . وروايات عن الكوفيين[٨٤] ترك من الكتب بضعة وعشرين كتابًا فى القرآن والحديث وغريبه والمعانى والشعر .

ومن الذين أتمّوا علومهم على الأصمعى صالح بن إسحق الجرمى ، أخذ عنه اللغة ، ثم اتجه إلى النحو فتزود من سعيد بن مسعدة الأخفش ، وقرأ عليه كتاب سيبويه ، وألف فيه كتابًا يعرف بالفرخ ، وقرأ ديوان الهذليين على الأصمعى .

ومنهم أبو عثمان بكر من محمد بن بقية المازنى : سأله الأخفش : أتلزم الأصمعى ؟ قال : ما أفارقه قال : أتتعلم منه النحو ؟ قال : لا ، ولكن أتعلم منه المعانى واللغة والشعر[٨٥] .

وكان أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشى كثير الرواية عن الأصمعى ، وكان يحفظ كتبه

---

(٨٢) معجم الأدباء ٣ : ٢٨٤ .

(٨٣) معجم الأدباء ٢ : ٢٨٥ .

(٨٤) معجم الأدباء ١٦ : ٢٥٥ .

(٨٥) المنصف لابن جنى ٣ : ٣٢٨ ط الحلبى سنة ١٩٦٠ .

وكتب أبي زيد[٨٦] .

يضاف إلى هؤلاء عامة الرجال الذين نصادِفُ أسماءهم فى كتب اللغة والأدب الذين رووا عن الأصمعى ، ويضيق بهم الحصر والتعريف

وظل علم الأصمعى ينتشر فى الأجيال على أيدى طلابه هؤلاء : فقال أبو بكر الأبهرى المالكى : جلست إلى جنب ابن دريد وهو يحدث ومعه جزء فيه ما قال الأصمعى ، فكان يقول فى واحد : حدثنا الرياشى ، وفى آخر : حدثنا أبو حاتم ، وفى آخر : حدثنا ابن أخى الأصمعى[٨٧] .

وفى حلقة الأصمعى وجه آخر من النشاط يتمثل فيما كان شبَّ بينه وبين زملائه من خصومات علمية ، فكل بارز فى مجتمع لابد أن تتباين فيه الآراء ، وتتعدد فيه وجهات النظر ، ولا تتحقق المقارنة بين اثنين إلا يسمو أحدهما بالإضافة إلى دنوِ الآخر ، وكان من الطبيعى أن يعيش الأصمعى هذه الفترة والناسُ من حوله بين مُوَثِّق ومتهم ، ومادح وقادح : إما عن عقيدة واقتناع ، وإما عن مكابرة وهوى ، يدلك على ذلك هذه المساجلات التى نقدم لك جانبًا منها :

تلازم الأصمعى ومعمر بن المثنى حين كانا يطلبان العلم ، ثم بلغا ذروة التحصيل معاً ، فخرج الفارسان إلى الناس فى عنان واحد ، وحملا معًا أصول الرواية ، فلم يكن يذكر أحدهما إلا يذكر الآخر إلى جانبه ، ولا يطلب من أحدهما علم إلا يستكمل من صاحبه . والأمر فى عصبيتهما مختلف : فالأصمعى عربى يمده لسانه بلغة قومه ، طَبِّعَةً سليمة ، وتمده عصبيته بنعرة الفتح ، وأبو عبيدة من الموالى لا يساعده لسانه على إقامة الكلام ، ولاحظ غُرْبَتَه عن العرب ، فعكف على دراسة آثارها وأنسابها وأيامها ، واستخرج من كل أولئك مثالبهَا ومفاخرَها أيضًا ، والأمر فى المعتقدات مختلف كذلك : فالأصمعى سُنِّىٌّ متحرّج يحرص على آثار السلف ، ويتمسك بالنزعة النقلية ، وأبو عبيدة متحرر يقرأ ، ويجمع ، ويعى ثم يتهدى بذوقه وعقله ، كما يعمل المتكلمون من أصحاب النزعة العقلية ، فكانت حياتهما وعلاقتهما العلمية انعكاسات لكل هذا .

لم يكن للأصمعى فى الخصومة صولة ولا جولة ، وهو يشعر بتكامل شخصيته . فجمهرة

---

(٨٦) أخبار النحويين البصريين ٦٨ .

(٨٧) تاريخ بغداد ٢ : ١٩٧ .

العلماء توثقه وتثنى عليه ، ويختارونه إذا كان لابد من واحد من الرجلين ؛ كما فعلوا عند استقدامها إلى بيت الخلافة ، فلم يُبَادِئ أبا عبيدة بخُصُومَةٍ ، ولم يقع فيه ، بل كان يتجنبه ويتجنب لقاءه ، وربما فضّل عدم دخول المسجد ، لأن أبا عبيدة فيه ! وكل ما يُعرَف من هذا الوجه أنه عاب أبا عبيدة أن وضع كتاب المجاز فى القرآن ، وفسره برأيه[٨٨] ، وكانت وسيلته فى التعبير عن رأيه هادئة مهذبة لاشتم فيها ولا سباب ، وكل ما قاله بعد أن قرأ من كتابه قول الله تعالى : (آلم – ذلك الكتاب لا ريب فيه) أى لا شك فيه – قال الأصمعى : من يدرى أبا عبيدة أن الريب هو الشك ؟ وما عدا هذا فالأصمعى مدافع لا مهاجم !

والذى تراءى لنا أن أبا عبيدة لم يجد فرصة للنيل من الأصمعى إلا اغتنمها : كان يسخر منه ومن سعة حفظه ، ويقول فى أسلوب ساخر : (اسألوا هذا الذى يزعم أنه ما قرأ شيئاً واحتاج أن يعود إليه !) وذلك فى سياق قصتّها المشهورة مع الحسن بن سهل عندما أخذ الأصمعى يعيد من ذاكرته ما وقع به الحسن .

وعندما ألقى على مسامع أبى عبيدة – أن أبا الأصمعى كان يساير الأمير سلم بن قتيبة – استشاط أبو عبيدة غضباً وقال : .... والله ما ملك أبو الأصمعى قط دابة إلا فى ثوبه وكان لا يكتفى بذَمِّه على أنه من باهلة ، بل كان يغرق فى تهكمه ويقول : إنه دَعِىٌّ حتى فى هذه النسبة .

وكان المفضل الضبى من شيوخ الكوفة ، وأكبر من الأصمعى سنًّا ، وله مكانه فى بيت العباسيين ، وتصادف أن جمعه مع الأصمعى مجلسٌ لسليمان بن على الهاشمى – وقيل جعفر بن سليمان – فى البصرة ، فأنشد المفضل قول أوس بن حجر :

وذات هدمٍ عـارٍ نواشرُها تُصْمِتُ بالماءِ تَوْلَبًا جدعا[٨٨]

فجعل الدال معجمة وفتحها ، وصحف وذهب إلى (الإجذاع) فقال الأصمعى : تولبا جَدِعا – الدال مكسورة – وأراد تقريره على الخطأ ، فرفض المفضل وقال : هكذا أنشدته ! ودارت اللجاجة بين الرجلين كلٌّ يؤكد رأيه ، وعلا صوت المفضل ، فقال له الأصمعى : لو نفخت بالشبور لم ينفعك ! تكلَّمْ بكلام النمل وأصِبْ ، فرأى سليمان بن على أن ينقل الخلاف إلى التحكيم ، واتفقوا على غلام من بنى أسد ، فأحضِر ، وعرضا عليه ما اختلفوا فيه ، فقال بقول الأصمعى ، قال المفضل : وما الجدع ؟ ، قال الأصمعى : هو السيئ الغذاء ، وهكذا

---

(٨٨) نزهة الألبا ٦٨ .

هو فى كلامهم ، ومنه قولهم : أجدعته أمه إذا ساءت غذاءه[٨٩] .

وتعدّت الخصومة بين المفضل والأصمعى إلى ابن الأعرابى وكان تلميذ المفضل وربيبه . وتصادف أن كان الأصمعى فى بيت قريبه سعيد بن سلم الباهلى ، وأخذ فى مناقشة ولده ، فلما استنشده الشعر قال الابن :

سمين الضواحى لم تؤرقه ليلةً وأنعمُ – أبكارُ الهموم وعوسُها

وأنشد ليلة بالضم ، فسأله الأصمعى عن أستاذه قال : رجل يُدعى ابن الأعرابى ، فاستحضره وخَطَّأه ، لأنه رفع (ليلة) ، وكان يجب أن تنصب على الظرفية ، يقول : لم تؤرقه أبكارُ الهموم وعوسُها ليلةً من الليالى – وأخذ فى مناقشة ابن الأعرابى ليسخر منه أمام تلميذه قائلاً : إذا كانت الليلة مرفوعة بالفعل فأى شىء يرفع أبكار الهموم وعوسُها ؟[٩٠] وكان لهذه الحادثة أثرها فى نفس ابن الأعرابى ، فكان يقول دائما : (إن الأصمعى وأبا عبيدة لا يُحْسِنان شيئاً) وهذا حكم جائر كرّه بعض الناس فى علم ابن الأعرابى : قيل لأبى زيد الإقليدسى : لِمَ لَمْ تأت ابن الأعرابى ؟ قال : بلغنى أنه يستنقص الشيخين : يعنى الأصمعى وأبا عبيدة[٩١] .

ورأىُ ابن الأعرابى صادر عن خلاف ومكابرة : فلقد كان يعرف قدر الأصمعى ، ويحرص أشد الحرص على الإفادة من علمه وتتبع مروياته والأخذ برأيه : أشار إلى ذلك أبو حاتم السجستانى فقال : كان الأصمعى يأتى سعيد بن سلم ، وابنُ الأعرابى مؤدبٌ لولده ، فيفارق المجلس ، ويسأله سعيد بن سلم الإملاء على ولده فيفعل ، فإذا زال الأصمعى خرج ابن الأعرابى فيقول : أعرضوا علىّ ما أفادكم الباهلى ، ثم يكتبه ![٩٢] .

فى مثل هذه الخصومات كان العلماء يزيف بعضهم بعضا ، ويتلمّس كلٌّ منهم سقَط الآخر ، وكأن تمام الواحد منهم أن يكون بمنأى عن الخطأ لا يعزب عنه شاردةٌ ولا واردة ، فأخذت المعاندة تتطرق إلى أكثر الناس ثقة ، حتى الأصمعى هذا العالم المتحرج ، وهو يعترف فى أُخريات أيامه بأنه كان على غير الحق فى مناقشته مع سيبويه ، وأنه غلبه بلسانه .

---

(٨٩) نزهة الألبا ٦٨ .

(٩٠) الضواحى : ما بدا من الجسد ، وأنعم : أى وزاد على هذه الصفة ، عوسُها : هبها ، المزهر ٣ : ٣٢٢ .

(٩١) طبقات الزبيدى ٢١٣ .

(٩٢) طبقات الزبيدى ٢١٤ .

وإذ رأى الأمراء وأصحاب المجالس هذه الظاهرة بين العلماء – وكانوا بدورهم مفتونين بسماع هذه المحاورات – هيئوا لهم أسباب الخصومة والمنافسة ، وأعدوا لهم حكوماتٍ من الأعراب كالذى كان بين الكسائى وسيبويه حول المسألة الزنبورية ، وبين الكسائى والأصمعى فى مجلس الرشيد حول قول القائل :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرمًا

وكالذى كان بين الأصمعى وسيبويه ، إلى غير ذلك .

وكانت شهادة المحكمين ليست خالصة لوجه العلم غالبًا ، وإنما تنحرف إلى هذه الجهة أو تلك مرضاةً للأمير أو صاحب المجلس إذا عرف هواه وميله .

وهم فى سبيل التشنيع على الأصمعى كانوا يرجعون إلى بعض ما كان يدور فى حلقات الدرس ، ويتعلقون بنادرةٍ أو حادثة يتداولونها فى المجالس كسقطةٍ من سقطاته . ومن هذا ما أشاعوه أن رجلاً كان يحضر مجلس الخليل بن أحمد ، ليأخذ علم العروض ، فلم يوفق ، وأراد الخليل أن يصرفه عن هذه الغاية ، فلمّح له بذلك ، وألقى له هذا البيت ليُقَطِّعَه :

إذا لم تستطعْ شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

ففطن إلى ذلك ولم يعاود مجلسه روى هذا الخبر ابن خلكان[٩٣] دون أن يشير إلى الأصمعى .

أما ابن جنى فقد ذكر الخبر منسوبًا إلى الأصمعى فى صراحة[٩٤] ، ولكن الذى نعرفه ونميل إلى القول به أن الأصمعى لم يكن جاهلاً بالعروض ، ونحن لا ندافع عن الأصمعى ، ولا نستكثر من ذكر مواهبه ، ولا نعرض لقرب فهمه أو بعده ؛ فربما كان الفهم لا يؤثر تأثيراً مباشرًا فى الموهبة السمعية التى يتطلبها العروض ؛ وإنما نجد خبرًا يهتم فيه الرشيد باستدعاء الأصمعى ؛ ليمتحن جاريتين له ، ويقول فى خطابه إليه : (يا عبد الملك ، وجهت إليك بسبب جاريتين أُهديتا إلىَّ ، وقد أخَذَتَا طرفاً من الأدب أحببتُ أن تُبَوِّرَ ما عندهما ، وتشير علىّ فيهما ؛ قال الأصمعى : وسألتهما عن النحو والعروض والأخبار فما قصَّرَتا)[٩٥] .

---

(٩٣) وفيات الأعيان ١ : ٢٥٤ .

(٩٤) الخصائص ١ : ٣٦٢ .

(٩٥) تاريخ بغداد ١ : ٤١٣ .

وليس للأصمعى أن يَمْتَحِن فى العروض إذا كان هو فى حاجة إليه ، وكان يستطيع أن يبتعد عن سؤالها فيه .

وفى خبر آخر ترى الأصمعى يجعل العروض أحد الأصول الهامة التى يجب على الشاعر أن يأخذ نفسه بتعلمها ليكون فحلاً ، وهذا كلام لا يصدر عن رجل يجهل العروض .

ولكن رفض النصوص لوجود أخرى تعارضها فى المظهر أَمْرٌ يأباه البحث العلمى ، ويتحتم – والحالة هذه – التعليل لهذا التناقض ، وافتراض الفروض حتى يسكن الرأى عند وضع معين ترتاح إليه .

من هذا – أن الخليل بن أحمد أَلَّفَ كتابين فى العروض :

أولها : سهل الاستيعاب بَيِّنٌ واضح وسمّاه المثال ، أوضح فيه بحورَ الشعر وأورد أمثلةً لكل بحر من الشعر الجاهلى .

والكتاب الآخر : وهو كتاب الفرش – يشتمل على أصول القواعد التى انتهى إليها فى السكون ، والتحريك ، والأماكن التى تقبل الزحاف والعلل ، والأماكن التى يستكره فيها ذلك ، إلى آخر ما جاء من القواعد المعقدة التى لم يستطع كثيرٌ من العلماء الملازمين للخليل أن يعرفوها من أمثال سيبويه ، وقد يكون الأصمعى من الذين استوعبوا الكتاب الأول ، ففهم البحور وتفاعيلها ، ووقف عند الكتاب الآخر : إما لعجزه فعلاً ، وإما لعدم حاجته للتخصص فيه .

أما صاحب الحملة عليه بعد أبى عبيدة فهو إسحق بن إبراهيم الموصلى – وكان كما قَدَّمنا – من أخلص تلاميذه ، وأكثرهم عرفاناً بفضله ، ويقول كما يحدثنا ابنه : ما رأيت أحدًا قط أعلم بالشعر من الأصمعى ، ولا أحفظ لجيده ، ولا أحضر جواباً منه ! ولو قلت : إنه لم يك مثله – ما خفت كذبًا : لقد استأذن علىَّ يوماً وعندى أخ للعمانى الراجز ، فلما دخل عبث به أخو العمانى فقال : من هذا ؟ أهو الباهلى الذى يقول :

فما صفحةٌ مأدومةٍ بإهالةٍ بأطيب من فيها ولا أقط رطب

فقال له قبل أن يستتم كلامه : هو على كل حال أصلحُ من قول أخيك العمانى :

يارب جارية حوراء ناعمة كأنها عومةٌ فى قلب راقود

قال : فقلت له : أكنت أعددت هذا الجواب ؟ قال : لا ، ولكن ما مرَّ بى شىء قط إلا

وأنا أعرف منه طرفاً[٩٦] .

وفى مرة أخرى يقول : لم أر الأصمعى يدعى شيئاً من العلم ، فيكون أحد أعلم به منه[٩٧] .

كان هذا هو رأى إسحق بن إبراهيم الموصلى يوم كان يأخذ العلم عن الأصمعى ، فلما دخل بغداد وكان الموصلى من شعراء الرشيد ، وصاحب مجلس الطرب عنده . وكان بهذه الصفة يغترف من مِنَح الخليفة وهباته ، فما هو إلاّ أن شاركه الأصمعى . فأصبح غريمه فى صيد الدراهم حتّى انضم إسحق إلى أبى عبيدة وأبى نواس ! وكان إسحق على رأس هذا الثالوث الشعوبى ، فَزَيَّن للخليفة أن الصنيعة لا تجود عند الأصمعى لبخله وتقتيره على نفسه وأن أبا عبيدة أكثر منه جمعاً للعلم ومعرفة به وما كادت الأمور تتغير فى البلاط العباسى بعد مقتل جعفر بن يحيى حتّى استطاع إسحق أن يقنع الفضل بن الربيع بذلك ، وكتب إليه :

عليك أبا عبيدة فاصطنعهُ … فإن العلم عند أبى عبيدة
وآثــره وقَــدِّمْـه عـلـيــه … ودَعْ عنك القريد بن القريدة ![٩٨]

ونجحت هذه المساعى ، واستُدعى أبو عبيدة إلى بغداد فى سنة ثمان وثمانين ومائة : أى بعد مقتل جعفر البرمكى مباشرة .

وأغرق إسحق . وتجاوز الحد فى العداوة ، فلم يكتف بالتوصية بحرمانه وإحلال أبى عبيدة محله ، وأن يعمد فى سبيل ذلك إلى تسفيه علم الأصمعى . فبات يختلق القصص والحكايات التى تستهدف النيل منه ، وهذه واحدة منها ، يجعله فى صورة المُتَسوِّل الملحاح ، ويصف أباه بالنذالة والجهل :

يقال إن أبا ربيعة ذهب يزور الأصمعى وهو مريض ، وكان أبو ربيعة يرغب فى الأدب ويبرّ أهلَه ، فقال له الأصمعى : أقرضنى خمسة آلاف درهم ؛ فقال : أفعل ، وقال : فأى شيء تشتهى سوى هذا ؟ فقال : أشتهى أن تهدى إلىّ فصًّا حسناً ، وسيفاً قاطعاً وبرداً حسناً ، وسرجاً مُحلًّى ! فقال : أفعل ، وبعث بذلك إليه لما عاد إلى منزله ، وبلغ ذلك إسحق فقال :

---

(٩٦) الموشح ٢٩٧ .

(٩٧) وفيات الأعيان ٢ : ١٤٤ .

(٩٨) وفيات الأعيان ٢ : ١٠٥

أليس من العجائب أنّ قردًا (أصيمع) باهليًا يستطيلُ
ويزعم أنه قد كان يُفْتى أبا عمرو ويسأله الخليلُ
إذا ما قال : قال أبى ، عجبنا لما يأتى به ولما يقول
وما إن كان يدرى ما دبير أبوه إن سألت وما قبيل
وجلله عطاءُ الملك عارًا تزول الراسيات ولا يزول
نصحتُ أبا ربيعة فيه جهدى وبعض النصح أحياناً ثقيل
فقل لأبى ربيعة إذ عصانى وجار به عن القصد السبيلُ
لقد ضاعت برودك فاحتسبها وضاع الفصُّ والسيفُ الصقيلُ
وسرجٌ كان للبرذون زينًا له فى إثره - جزعاً - صهيلُ
وأما الخمسة الآلاف فاعلم بأنك غبنها لا تستقيل
وأن قضاءها فتعزّ عنها سيأتى دونها زمن طويل [٩٩]

ولم يلق الأصمعى هوانًا أكثر مما لقى من إسحق وأبى عبيدة ، ولا أريد أن أترك إسحق بخاصة وأصحابه عامة وأمامى أخبار لا يجرؤ على نسبتها للأصمعى غير هؤلاء . ولا تكاد تطمئن إلى النصوص التى تشير إلى تقوى الأصمعى وصلاحه حتى ترى نقيضًا لهذه النصوص هى بلا شك من آثار الخصومة وإذْ ترى خبرًا يتحرج فيه الأصمعى أن يشرب من كأس بها عرق من الفضة[١٠٠] ترى خبرًا آخر يذكره صاحب العقد ، يشرب فيه الأصمعى خمراً حتى يخرب ما عمر من دينه !

أما الخبر الأول فللخطيب عن أبى حاتم يقول : (أهديْتُ إلى الأصمعى قدحاً ، فجعل ينظر إليه ويقول : ما أحسنه ! فقلت له : إنهم يزعمون أن فيه عرقاً من الفضة ، فرده إلىّ ، وقال : إن رسول الله ﷺ نهى أن يُشرب فى آنية من فضة ونحن نعرف صلة الأصمعى بالسجستانى ، وليس ببعيد أن يكون أبو حاتم قد أهدى أستاذه هذه الكأس ، وليس ببعيد أيضاً أن يرده الأصمعى عزوفاً عن الدنيا حذر الآخرة ، ولعل رواية الخطيب البغدادى للخبر من غير شك فيه أو تعليق عليه يرجح صحته لما عرف عن الخطيب من ميل إلى التثبت .

---

(٩٩) الأغانى ٥ : ٣٨٧ - ٣٨٨ .
(١٠٠) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٠ .

أما الخبر الآخر فيذكره صاحب العقد ويرويه عن الأصمعى نفسه ... ! وعلى هذه الصورة :

(قال الأصمعى : دخلت على هارون الرشيد ، فوجدته منغمساً فى الفراش ، قال : ما أبطأ بك يا أصمعى ؟ قلت احتجمت يا أمير المؤمنين ؛ قال : فما أكلت عليها ؟ قلت : سكباجة وطباهجة ؛ قال : رميتها بحجرها ، أتشرب ؟ قلت نعم ، وقلت :

اسقنى حتى ترانى مائلاً وترى عمران دينى قد خرب

فقال يا مسرور ، أى شىء معك ؟ قال : ألف درهم ؛ قال : ادفعها للأصمعى)[١٠١] .

والأمر على هذه الصورة ينفيه قليل من التروى : فلقد عرفنا مسلك الرشيد مع الأصمعى ، وأنه آخَذَه مؤاخذة شديدة أن أجابه بكلمة تخرج عن إدراكه فقال له : حدِّثْنى بما أفهم أتراه يقبل منه الآن لهجة الآمر ويرضى بالأصمعى ماجناً مستهتراً يطلب خمراً يخرب به ما عمر من دينه ، ثم يأمر خادمه أن يدفع للأصمعى ألف درهم مكافأة له على مسلكه هذا . وقد عوّدَنا الخلفاء أن يأمروا بمنحهم فى أعقاب المدائح ، أو الرجاء الجميل ، أو استحسان البديهة ، أو العمل الصالح ، أو ما ينبئ عن عمل يتجاوز القدر المشترك ، أو ذكاء خارق وليس فى موقف الأصمعى على الصورة التى ذكرها صاحب العقد ما يستحق المثوبة ، وليس فى البيت المذكور الماجن ما يسبب طرب الخليفة ، فيهتز ويخرج عن وقار الخلافة ، فيأمر بألف درهم فيه .

والرأى عندى أنّ أبهة الخلافة فى عصر الرشيد ، ووصول الدولة الإسلامية إلى قمة عظمتها التى لم تصلها فى يوم من الأيام – أطلق خيال القُصَّاص ، فجعلوا من بلاط الرشيد تربةً خصيبةً للحكايات والنوادر حتى وصل ذلك إلى أقصى النهايات فى الاختراع فيما حكى عن بلاط الرشيد فى كتب ألف ليلة وليلة ، وإعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس ، إلى غير ذلك . ولا يخفى أن ابن عبد ربه – أموى الهوى – وله فى مثل هذا الخبر قصدٌ أنْ يسيىء إلى الرشيد العباسى ، فاتخذ الأصمعى وسيلة لقصده .

ومع هذا ، فإن شخصية الرشيد لم تعدم فى وسط هذا الطوفان من الخرافات من يصورها تصويراً حقيقيًّا ، ويضع هذه الصورة فى إطارها التاريخى المتين . فنحن نعلم أنه كان يحج سنة

(١٠١) العقد الفريد ٥ : ٣٧٩

ويغزو سنة . ويصلى كل يوم مائة ركعة ، وزجر نديمه الذى تعمد أن يضحكه فى الصلاة وقد سمعه يقول (وما لى لا أعبدُ الذى فطرنى) فقال النديم : والله ما أدرى لم ؟ فقال الرشيد بعد أن انتهى من الصلاة : فى الصلاة أيضًا ! إياك والقرآن والدين . ولك ما شئت بعدها(١٠٢) وكان الرشيد يستفتى العلماء فى كل صغيرة وكبيرة إلا أنه ككل عاهل واسع السلطان كان يفسح المجال لأهل الأدب وأرباب الفنون . وكان فيهم الشعراء والقصَّاص . فجعلوا من شخصيته هو مسرحًا لخيالهم ، وهكذا وصلنا ما وصلَنا من الأخبار العجيبة عنه . وعن قصره ، وحاشيته أما بالنسبة للأصمعى فلم يكن له بلاط يشيع عنه القصص والحكايات . ويصورها بالحقيق والزائف . ولكن كان له الثالوث المتصدى لسلبه كلَّ مقومات فضله ، فنالوا من عمله ، ومن مذهبه أيضًا .

---

(١٠٢) مقدمة ابن خلدون ٨٤ ط الأزهرية .